الباب الأول

التفكير الصحيح فى الكون
سبيل إلى الإيمان بالله تعالى

الفصل الأول

قيمة العقل وضرورة المحافظة عليه

العقلُ مِنْ أجَلِّ نِعَمِ اللهِ على الإنسان :

نِعَم الله على الإنسان لا تُعدُّ ولا تُحصى، ومن أجلِّها نعمة العقل:

١ ـ إذ بالعقل ميَّز الله هذا الإنسان على غيره من المخلوقات، فسخَّر له كلَّ ما فى السموات وما فى الأرض، وكلَّفه عمارة الأرض، واستخلفه فيها.

قال تعالى : ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

وقال تعالى : ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] .

وقال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] .

٢ ـ وبالعقل يعرف هذا الإنسان خالقه، ومدبِّر أمره فيعبدُه ويوحِّدُه.

قال تعالى : ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(١٦٤)﴾ [البقرة] .

٣ ـ وبالعقل يُدرك هذا الإنسان صدق الأنبياء والمرسلين فيما دَعَوا إليه مِنْ عبادة الله، وتوحيده، ومكارم الأخلاق، فيسهل عليه الاقتداء أو التأسِّى.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] .

٤ ـ وبه يوقن هذا الإنسان أنَّه ـ وإن طال الزمن ـ راجع إلى ربِّه لا محالة، ومجزىٌّ على عمله بالسُّوء سوءًا ، وبالإحسان إحسانًا.

قال تعالى : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥)﴾ [المؤمنون] .

وقال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾ [الزلزلة] .

٥ ـ وبه يفهم هذا الإنسان التكاليف الشرعية المكلَّف بها مِنْ قِبَل الله ورسوله، فيؤديها، وهو على يقين وبيِّنَة من أمره.

قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴿٢٩﴾﴾ [ص].

٦ ـ وبه يستخلص هذا الإنسان من كتاب ربِّه، وسنة نبيِّه محمد ﷺ الأحكام التشريعية المناسبة لكلِّ ما هو طارئ، وجديد فى الحياة.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]

٧ ـ وبه يكتشف هذا الإنسان النواميس، والسُّنن التى تحكم هذا الكون، ويعمل جاهدًا على توظيفها فيما ينفعه وغيره من الأحياء.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴿٧٨﴾﴾ [النحل].

٨ ـ وبه ألزَمَ الأنبياءُ والمرسَلُون المكذِّبين والمعاندين الحجةَ، فقطعوا عليهم عذرهم يوم الدين بين يدى الله تبارك وتعالى.

قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]

وظيفة العقل ومجالاتـه:

وفى ضوء ما تقدَّم نجد أن وظيفة العقل هى:

١ ـ الفهم، بمعنى جودة أو حُسن تصور المعانى والحقائق.

٢ ـ التفكير، بمعنى استخدام المعلوم فى معرفة واكتشاف المجهول.

وأنَّ مجالات عمل هذا العقل هى:

١ ـ الكون.

٢ ـ النفس.

٣ ـ التكاليف.

حيث خلق الله هذا العقل، ولديه القدرة على اكتشاف أسرار الكون والنفس، وتسخير ذلك فى:

١ ـ معرفة أنَّ الله واحد لا شريك له، موصوف بكل كمال، مُنزَّه عن كلِّ نقص، ثم تقوية الصلة به سبحانه عن طريق عبادته، والنزول على حكمه.

٢ ـ ومعرفة صدق الأنبياء والمرسلين فى أنفسهم، وفيما أخبروا به، ثم اتباعهم بالاقتداء والتأسى، وحماية ما جاؤوا به بالنفس والنفيس.

٣ ـ اليقين بالدار الآخرة للحساب والجزاء ، ثم الاستقامة خوف العقاب ورجاء الثواب.

٤ ـ وعمارة الأرض إلى حدِّ السيادة فيها.

وما المبتكرات والمخترعات التى اكتشفها العلماء، وأفادتْ منها البشرية فى كل ميادين الحياة من: طبٍّ، وهندسة، وجيولوجيا، وفلك، وبحار، ونبات، وحيوان، ونحوها إلا شاهد صدق على قيمة العقل وقدرته.

كما جعل المولى ـ سبحانه ـ هذا العقل قادرًا على :

١ ـ فهم التكاليف الشرعية، والبحث عن أسرارها، والتصديق بها.

٢ ـ واستخلاص الأحكام الشرعية لما لا نصَّ عليه من كلِّ ما هو جديد وطارئ فى الحياة، شريطة ألا تتعارض هذه الأحكام مع الكتاب والسنة.

٣ ـ ومحاجَّة المعاندين والمكذبين لله ورسوله بما يحبط كيدهم، ويبطل سعيهم، ويلزمهم الحجة، ويزيل عذرهم بين يدى الله يوم القيامة.

المجالات المحظورة على العقل :

ولا مناص من التنويه والتنبيه فى هذا المقام إلى أن هناك مجالات محظورًا على العقل الدخول فيها، وهى:

١ ـ التفكير فى ذات الله ؛ إذ العقل أعجز من أن يحيط بنفسه، فضلًا أن يحيط بالله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴿١٠٣﴾﴾ [الانعام].

٢ ـ تحديد وتعيين أسماء الله الحسنى، وصفاته العليا، فإن العقل لم ير الله، فكيف يُحدِّد ويُعيِّن هذه الأسماء، وتلك الصفات ؟

إنَّ الوَحْىَ ـ كتابًا وسُنَّة ـ هو الذى يُحدِّد ويُعيِّن ذلك؛ لأنَّه لا يعرف الله إلا الله.

٣ ـ معرفة حقيقة اليوم الآخر وتفاصيله؛ إذ هذا غيب، والغيب لا يُعرف إلا بالوحى.

٤ ـ معرفة حقيقة الملائكة، والجنِّ، والشياطين؛ إذ هذا غيب كذلك، والغيب لا يعُرف إلا بالوحى.

٥ ـ حقيقة القدر، يعنى: لا يقولنَّ العقل: لماذا هذا الطفل مريض، وهو لم يرتكب ذنبًا ؟ ولماذا هذا العاصى سليم، معافى، وهو لم يعرف معصيةً إلا ارتكبها ؟ لأن تقدير ذلك مردُّه إلى الله الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء.

قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١].

٦ ـ قبول الوحى ـ كتابًا وسنة ـ أو ردُّه، فإن الوحى حكم الله للإنسان الذى هو خَلْقُ الله، والعقل أقل من أن يقبل أن يردَّ حكم الله، وهذا لا يمنع فِقهَهُ حُكْم الله وأسراره، والتوفيق بين المتعارضات منه بالجمع أو بالترجيح.

طرق صيانة العقل والمحافظة عليه :

ومادام العقل ذا قيمة عالية، ومنزلة رفيعة من الإنسان هكذا، فإنه يجب صيانته، والمحافظة عليه.

وتتلخص طرق صيانة العقل والمحافظة عليه فى :

١ ـ تحريم كل ما يكون سببًا فى إذهاب العقل أو الحيلولة بينه وبين التفكير السليم، مثل قليل المسكرات، والمخدرات وكثيرها على اختلاف أسمائها، وكثرة أنواعها.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المائدة] .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « كُل مُسكرٍ خمر، وكلُّ مُسكرٍ حرام، ومَنْ شَرِبَ الخمرَ فى الدنيا فمات وهو يُدمنها لم يتبْ، لم يشربها فى الآخرة »[1] .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى: الصحيح: كتاب الأشربة: باب بيان أنَّ كلَّ مُسكرٍ خمر، وأنَّ كل خمرٍ حرام ٣/ ١٥٨٧ برقم ٢٠٠٣ .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أسكَرَ كثيره، فقليلُهُ حرام» (١) .

٢ ـ تحريم الاعتداء على الإنسان بكلِّ ما يكون سببًا فى إذهاب العقل، أو تعطيله عن التفكير السليم، واعتبار ذلك خيانة تساوى القتل.

«حيث لم يختلف الفقهاء فى وجوب الدِّية الكاملة فى إذهاب العقل، مبررين ذلك: أنَّه من أكبر المعانى قدرًا، وأعظمها نفعًا، به يتَميَّزُ الإنسان، ويعرف حقائق الأشياء، ويهتدى إلى مصالحه، ويتَّقى ما يضره، وما يدخل فى التكليف» (٢) .

«كما ذهبوا إلى أنه إذا تسبب إنسان فى نقص عقل غيره نقصًا معلومًا بالزَّمان، كأن صار يُجنُّ يومًا، ويفيق يومًا، فعليه من الدِّية بقدر ذلك»(٣) .

٣ ـ تحريم عبادة الأوثان، والسجود لغير الله، ومقاومة ذلك بكلِّ الأساليب والوسائل الممكنة الملائمة، من منطلق أنَّ ذلك انحدار فى التفكير ، وتعطيل للعقل، وإهدار لكرامة الناس.

قال تعالى : ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾

[الأنعام]

وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾[الانفال: ٣٩].

٤ ـ البعد عن المعاصى والسيئات ـ صغيرها، وكبيرها، ظاهرها وباطنها ـ مع الترفع عن التفكير فى سفاسف (٤) الأمور، ودناياها، فإن هذا يُصيب العقل بالجمود والتبلُّد، وهذا عكس وظيفة العقل.

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن: كتاب الأشربة: باب النهى عن المُسكر ٤/٨٧ برقم ٣٦٨١، والترمذى فى: السنن: كتاب الأشربة: باب ما أسكر كثيره فقليله حرام ٤/٢٥٨ برقم ١٨٦٥، وعقَّب عليه بقوله: «هذا حديث حسن غريب من حديث جابر».

(٢) انظر: حاشية ابن عابدين ٥/ ٣٦٩ بتصرف.

(٣) انظر: المغنى لابن قدامة ٨/ ٣٧ ـ ٣٨ بتصرف.

(٤) السفاسف: جمع سِفْساف، وهى الردىء الحقير من كلِّ شىء وعمل، انظر: المعجم الوسيط ١/٤٣٣.

٥ ـ الإقبال على الطاعات ـ فرائض، ونوافل ـ وترويض العقل بمواصلة التفكير فى خلق الله وكونه، وكلٌ ما يعود على البشرية بالنفع والخير، فإن ذلك ينير العقل وينمّيه.

* * *

الفصل الثانى
الإسلام يدعو إلى التفكير الصحيح وينهى عن التقليد

خصائص التفكير الصحيح :

تقدَّم أن من وظائف العقل : التفكير.

غير أن هذا التفكير قد يكون صحيحًا، وقد يكون غير صحيح، والأمر يقتضى تحديد خصائص التفكير الصحيح تمييزاً له عن التفكير غير الصحيح، وهذه الخصائص هى:

١ ـ أن يكون التفكير فى مجاله، فإنْ دخل مجالا غير مجاله كان غير صحيح، وسبق بيان المجالات المباحة، والمحظورة على العقل.

٢ ـ وأن يكون قائماً على الدليل، قال تعالى : ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١، والنمل: ٦٤]

٣ ـ وأن يكون الهدف منه الإصلاح لا الإفساد، والإسعاد لا الإشقاء.

دعوة القرآن والسنة إلى التفكير الصحيح (النظر والاجتهاد):

جاءت آيات كثيرة فى كتاب الله، وأحاديث شتَّى فى سنة النَّبى ﷺ تدعو إلى التفكير الصحيح (النظر والاجتهاد) وتحثُّ عليه، وترفع من شأن أهله وتجعله عبادة، منها قوله تعالى :

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

وقوله تعالى : ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ ۝٢﴾ [الحشر] .

وتعليمه ﷺ لأصحابه كيف يقيسون المسألة على ما يشبهها من المسائل:

عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما : أن امرأةً أتت رسول الله ﷺ فقالت: إنَّ أمى

ماتت وعليها صوم شهر، فقال: «أرأيتِ لو كان عليها دين تقضينه؟» قالت: نعم، قال: «فدين الله أحقُّ بالقضاء»[1].

وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: أن امرأة من جهينة جاءتْ إلى النبيِّ ﷺ فقالت: إنَّ أمي نذرتْ أن تحج، فلم تحج حتى ماتتْ، أفأحج عنها ؟ قال: «نعم، حُجِّي عنها، أرأيت لو كان على أمِّك دَيْن، أكنتِ قاضيته، اقضوا الله، فالله أحقُّ بالوفاء»[2].

فعلَّم رسول الله ﷺ كلتا المرأتين : كيفية قياس حقِّ الله على دين العباد وحقوقهم.

وعن عائشة بنت أبي بكر الصديق، وعن ثابت بن قيس، وعن أنس بن مالك رضي الله عنهم : أن النَّبيَّ ﷺ مرَّ بقومٍ يُلقِّحون[3]، فقال: «لو لم تفعلوا لصلح» قالوا: فخرج شيصاً[4]، فمرَّ بهم، فقال: «ما لنخلكم ؟» قالوا: قلتَ: كذا، وكذا، قال: «أنتم أعلم بأمور دنياكم»[5].

فأراد النبيُّ ﷺ أن يرشدهم في هذا الحديث إلى أنَّ مثل هذه الأمور المتعلقة بالحياة الدنيا، وعمارة الأرض، لا تحتاج إلى وحي منقول من كتاب أو سنة، وإنما يتوصل إليها بالخبرة، والممارسة، ويكفي أن يشير الشرع إلى أهمية الزراعة وجزيل ثوابها.

ولا يصح للمسلم أن ينتظر مجيء نصوص تعلمه أنواع التربة، وما يلائم هذا الزرع أو ذاك، أو كيف يزرع، أو كيف يقاوم الحشرات الضارة ونحوها، بل عليه أن يبحث عن ذلك بنفسه، ويسترشد بخبرة مَنْ سبقه، ويبني عليها، ويحاول أن يعدِّل فيها ما استطاع إن احتاج الأمر إلى تعديل.

وقد أرشد القرآن الكريم إلى أهمية الحديد في قوله سبحانه:

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥].

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في: الصحيح: كتاب الصيام: باب قضاء الصيام عن الميِّت ٢/ ٨٠٤ رقم ١١٤٨.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في: الصحيح: كتاب الحج: باب الحج والنذور عن الميِّت ٣/ ٢٢ ـ ٢٣.

(٣) التلقيح: وضع طلع الذكر في طلع الأنثى أول ما ينشق، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/ ٦٣.

(٤) الشِّيص: التمر الذي لا يشتد نواه، ويقوى، وقد لا يكون له نوى أصلاً، انظر: النهاية ٢/ ٢٤٥.

(٥) الحديث أخرجه مسلم في: الصحيح: كتاب الفضائل: باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره رضي الله عنه من معايش الدنيا على سبيل الرأي ٤/ ١٨٣٥ رقم ٢٣٦٣ بهذا اللفظ، وبنحوه.

مكتفياً بهذه الإشارة، تاركاً للعقل أن يفكر فى كيفية إذابته وتشكيله والاستفادة منه فى شؤون الحياة.

موقف المسلمين قديماً من الدعوة إلى التفكير الصحيح (النظر والاجتهاد):

ولم يقف المسلمون قديماً من الدعوة إلى التفكير الصحيح (النظر والاجتهاد) موقف الجامد أو الرافض، وإنما وقفوا موقف اللين المستجيب، فجدُّوا فى البحث والاجتهاد ضمن قوانين دقيقة رسموها لأنفسهم من خلال ما فهموه من ضوابط التشريع، فخلفوا وراءهم ثروة طائلة فى علوم شتى، كالتفسير، وعلوم القرآن، وعلوم الحديث، والفقه، والأصول ونحوها، مما يعتبر بحقٍّ مفخرة الأمة الإسلامية.

وأضافوا إلى العلوم الدينية المبنيَّة على النقل علوماً أخرى حياتية، تتعلق بعمارة الأرض فى: الطبِّ، والهندسة، والبحار، وطبقات الأرض، والنبات، وغيرهـا.

ومن عجب أن الواحـد من هؤلاء العلماء كان يجمـع بين أكـثر من تخصص فى العلوم النقلية، والعلوم الحياتية، فيوصف بالفقيه، المفسِّر، الفلكى، الطبيب.

وإليك نماذج مختصرة منهم ليتبين لك ريادتهم، وتنوع تفكيرهم، والعلوم التى أسسوها أو اقتبسوها من غيرهم ونمَّوها:

ألَّف أبو بكر الخوارزمى فى علم الجبر كتاب «الجبر والمقابلة».

ووضع أبو الحسن بن الهيثم فى علم الفيزياء كتابه المشهور: «البصريات».

وألَّف أبو بكر الرازى كتاب: «الحاوى» فى الطب، جمع فيه صناعة الطب، وكتاب «المنصورى»، الذى اشتمل على مباحث فى التشريح والأدوية، والسموم، والجراحة.

وألَّف ابن سينا كتاب: «القانون» فى الطبِّ، وترجم هذا الكتاب والذى قبله إلى اللاتينية، وصار كلٌّ واحد منهما مرجعًا فى بابه فى الجامعات الأوروبية حتى نهاية القرن السابع عشر، بل حتى يومنا هذا[1].

موقف الإسلام من التقليد:

ينقسم التقليد إلى قسمين:

١ ـ تقليد إيجابى: وذلك ما كان فى وجوه الخير، وعن علم ومعرفة، والأفضل

---

(١) انظر: الإسلام والعلم التجريبى: الباب الثالث: الإنجازات العلمية عند المسلمين للدكتور: يوسف السويدى ١٢٩ ـ ٢٠١ بتصرف كثير.

أن يسمَّى هذا القسم : « اتباع إيجابى » بدل : « تقليد إيجابى » ، فقد جاء فى القرآن الكريم قول يوسف الصديق للفتيين اللذين كانا معه فى السجن:

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [يوسف]

وقد مدح الله هذا القسم ودعا إليه وأمر به، فقال للنبى ﷺ :

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل] .

وقال لنا: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران] .

٢ ـ تقليد سلبى : وهو ما يفعله المرء مُحاكيًا فيه غيره دون تفكير، أو علم بحقيقة ما يفعله، وهذا القسم مذموم؛ لأنه تعطيل للعقل عن وظيفته التى خلقه الله من أجلها.

ولذا عاب الله على المشركين تقليدهم آباءهم بغير علم، وجدالهم عن غير هدى:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾ [لقمان] .

وأمر ﷺ أن يكون للمرء رأيه السديد، ونظره المستقل فى المسائل التى يفعلها الناس:

عن حذيفة رضي الله عنه أن النبىَّ ﷺ قال: «لا تكونوا إمَّعة [1] ، تقولون: إنْ أحسنَ الناس أحسنَّا، وإنْ ظَلَموا ظَلَمنا، ولكن وطِّنوا أنفسكم: إن أحْسَنَ الناس أن تُحسنوا، وإن أساؤوا فلا تظلموا» [2] .

وحذَّر النبى ﷺ مما سيؤول إليه أمر كثير مِنْ هذه الأمة من تقليد غيرهم من الأمم الضالة، فى كلِّ ضارٍ، وقبيح، دون تعقل أو تدبُّر:

---

(١) الإمَّعة ـ بكسر الهمزة، وتشديد الميم ـ : الذى لا رأى له، فهو يتابع كل أحد على رأيه، والهاء فيه للمبالغة، ويقال فيه: إمَّعٌ أيضًا، وقيل :هو الذى يقول لكلِّ أحد: أنا معك، ومنه حديث ابن مسعود: «لا يكونَنَّ أحدكم إمَّعة» قيل: وما الإمعة؟ قال: «الذى يقول: أنا مع الناس»، انظر: النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١/ ٤٢ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى: السنن: كتاب البرِّ والصلة: باب ما جاء فى الإحسان والعفو ٤/ ٣٢٠ رقم ٢٠٠٧، وعقَّب عليه بقوله: «هذاحديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

عن أبى سعيد الخدرىِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لَتَتَّبعنَّ سَنَنَ[1] الذين مِنْ قبلِكم: شبراً بِشبر، وذِراعاً بذراع، حتى لو دخلوا فى جُحر ضبٍّ لاتَّبعتموهم»، قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى ؟ قال: «فَمَنْ ؟» [2] .

وجعل الله هذا الصنف من الناس فى مرتبة أسوأ حالاً من المخلوقات التى لا تعقل، كما جعل مثواها النار، وبئس القرار:

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)﴾ [الأعراف] .

* * *

(١) السَّنَن: الطريقة، والمثال. انظر: المعجم الوسيط ١/ ٤٥٦ بتصرف، ومراده ﷺ بالتمثيل بالشبر، والذراع، وجحر الضَّبِّ شِدَّة الموافقة لهؤلاء، ولكنها الموافقة فى المعاصى، والسيئات. وليس الكفر.

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح: كتاب العلم: باب اتباع سنن اليهود والنصارى ٤/ ٢٠٥٤ رقم ٢٦٦٩ .

الفصل الثالث
المسلم مُكلَّف بالتفكير في الكون
للوصول إلى الإيمان بالله تعالى

بعض المشاهد الكونية الدالة على وجود الله تعالى :

كلُّ ما فى هذا الكون من أصغر شىء فيه إلى أعظمه شاهد على وجود إله خَلَقَ فسوَّى، وقدَّر فهدى.

ومن أمثلة ذلك :

١ ـ الهواء :

ذلك الجسم الرقيق الذى لا يُرى:

أ ـ يُعدُّ مادة الحياة للأحياء، لا يستغنى عنه بشر ولا كائنٌ حىٌّ.

ب ـ كما يُعدُّ مساعداً للإنسان على تيسير سبيل العيش، والانتقال من مكانٍ إلى مكان، إذ هو يقوم بمهمة تلقيح النباتات وقت الإزهار، كما قال سبحانه:

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

[الحجر]

وهو كذلك يحمل أعتى الناقلات العملاقة التى أصبحت أسرع وأستع وسيلة ينتقل فيها المرء من أقصى الأرض إلى أقصاها.

كما يحمل أيضاً آلاف الأطنان من المياه عبر الغيوم التى هى جبال متراكمة، كما تتراءى للناظر عندما يكون فى الجوِّ، ثم تُساق هذه الغيوم إلى أراضٍ بعيدة تفرغ فيها ماءً يحيى العباد والبلاد، فينبتُ الكلأ، ويكون سبباً فى الخير لكل كائنٍ، وحىٍّ.

قال تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الروم] .

وقال تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ

وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الروم] .

جـ ـ وبُعدٌ كذلك وسيلة انتقام من الكافرين المكذِّبين والمعاندين، ووسيلة نصر وإعانة للأنبياء والمرسلين وأتباعهم من المؤمنين الصالحين، كما حدث لعاد قوم هود، إذ كذَّبوا بآيات الله، واغتروا بقوتهم، قائلين: مَنْ أشدُّ منَّا قوة، فأهلكهم الله بالريح، ونصر هوداً ومن معه من المؤمنين.

قال تعالى : ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فُصِّلَتْ] .

وتتوالى الأسئلة: مَنْ يُنشئ هذا الهواء؟ ومَنْ الذى يسوقه بقدر؟ ومَنْ الذى يحدِّد وجهته وغايته؟ ومَنْ الذى يحمِّله ما يحمل؟ ومَنْ الذى يجعله حياةً أو موتًا؟ ومَنْ... ومَنْ... ومَنْ...؟.

لا أحد يقدر على ذلك كله إلا الله رب العالمين، فكان الهواء شاهداً على وجود الله، وكمالاته.

٢ ـ النبات آكل الحشرات :

إذ يقول علماء النبات : إن هناك نباتات نَمَتْ فى أرض قليلة الموادِّ العضوية، وحتى تحصل على حاجتها من المواد العضوية زُوِّدَتْ بما يمكنها من اقتناص الحشرات، وامتصاص المواد العضوية من أجسامها فى صورة عجيبة، مدهشة، ومن هذه النباتات: نبات يسمى «الديونا» ينبت مزوَّداً بأوراق ذات مصراعين، يتحركان على العِرق الأوسط، وكلٌّ منهما مزوَّدٌ بزوائد شوكية على سطحه الأعلى.

فإذا وقعت حشرة على ورقته يقفل المصراعين فجأة على الحشرة ثم يفرز النبات الأنزيمات (العصارات) التى تهضم الحشرة، وتذيبها، فيمتص النبات ما يذوب منها.

وبعد تمام الامتصاص تعود الورقة لحالتها الأولى فاتحة مصراعيها استعداداً لقنص فريسة أخرى... وهكذا [1] .

---

(١) انظر: الله والعلم الحديث ، ص ١٠٣ .

وتتوالى الأسئلة كذلك: مَنْ الذى يُنبت هذا النوع من النبات؟ ومَنْ الذى يزوِّده بالأوراق والمصراعين؟ ومَنْ الذى يحركه ليقفل المصراعين عند وقوع الحشرة على الورق؟ ومَنْ الذى يجعله يفرز الأنزيمات التى تهضم الحشرة وتذيبها؟ ومَنْ الذى يجعله يمتص ما يذوب من الحشرة ؟... وهكذا.

لا أحد يقدر على ذلك كله سوى الله ربُّ العالمين، فكان النبات آكل الحشرات من أعظم المشاهد الدالَّة على وجوده سبحانه وكمالاته.

٣ ـ التناسق والترتيب فى الكون :

ونترك للدكتور محمد عبد الله دراز تصوير التناسق والترتيب فى الكون، إذ يقول:

« قَدِّر فى ذهنك بيتًا منسَّق البنيان، فاخر الأثاث والرياش، قائماً على جبل مرتفع، تكتنفه غابة كثيفة... وقدِّر أن رجلاً جاء إلى هذا البيت فلم يجد فيه، ولا حوله ديَّاراً، ولا نافخ نار... فحدثته نفسه بأنَّه عسى أن تكون صخور الجبل قد تناثر بعضها، ثم تجمع ما تناثر ليأخذ شكل هذا القصر البديع، بما فيه من مخادع ومقاصير، وأبهاء، ومرافق، وأن تكون أشجار الغابة قد تشققت بنفسها ألواحاً، وتركبت أبواباً، وسروراً، ومقاعد، ومناضد، ثم أخذ كلٌّ منها مكانه فيه، وأن تكون خيوط النبات، وأصواف الحيوان وأوباره، قد تحوَّلتْ بنفسها أنسجة موشاة، ثم تقطعتْ طنافس، ووثائر، وزرابى، فانبثتْ فى حجراته، واستقرَّت على أرائكه، وأنَّ المصابيح جعلتْ تهدى إليه بنفسها، مِنْ كلِّ مكان، فتَشَبَّتْ فى سقفه زرافات، ووحدانا... ألستَ تحكم بأن هذا حلم نائم، أو حديث خرافة، قد أصيب صاحبه باختلاط فى عقله؟

فما ظنُّك بقصرٍ.. السماء سقفه، والأرض قراره، والجبال أعمدته، والنباتات زينته، والشمس، والقمر، والنجوم مصابيحه؟

أيكون فى حكم العقل أهون شأناً من ذلك البيت الصغير؟

أو لا يكون أحق بلفت النظر إلى بارئ مصوِّر، حىٍّ، قيُّوم، خَلَقَ فسوَّى، وقدَّر فهدى؟»(١).

أنواع الأدلة الكامنة فى المشاهد الكونية والناطقة بوجود الله :

ويقول العلماء : إن الأدلة الكامنة فى: المشاهد الكونية، والناطقة بوجود الله تتنوع إلى أربعة أنواع :

---

(١) انظر: الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، ص ١١٦ .

١ ـ دليل الإبداع :

فقد خلق الله الأرض والسموات، وما بينهما على غير مثال سبق، وهو بهذا ينبغى أن يُعبد فلا يُجحد، ويُشكر فلا يُكفَر، ويُطاعُ فلا يُعصى.

قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام].

٢ ـ دليل العناية والنظام :

حيث جعل كلَّ شيء فى هذا الكون يجرى فى مساره بعناية تامَّة، ونظام بديع، بحيث لا يصطدم بغيره.

قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس].

٣ ـ دليل الهداية :

حيث هدى كل مخلوق ـ ولو كان غير عاقل ـ لوظيفته، ومهمته التى خُلِق من أجلها، وهذا الدليل هوالذى ردَّ به نبىُّ الله موسى عليه السلام على فرعون عندما سأله وأخاه هارون:

﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ [طه].

فأجاب:

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه].

وذكره ربُّ العزَّة سبحانه فى سورة الأعلى، فقال:

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى].

٤ ـ دليل التغير والحدوث :

حيث يرى الناظر طلوع وأفول الظواهر الكونية، باستمرار من: ليل ونهار، وقمر، ونجوم، وشموس، وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على الخالق الواحد الذى لا يعتريه أفول، ولا تغير ولا نقصان، وهذا الدليل استعمله إبراهيم عليه السلام فى محاجة قومه.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام].

خصائص الإيمان القائم على التفكير فى مخلوقات الله:

وأخصُّ ما يميز الإيمان القائم على التفكير فى مخلوقات الله تعالى: أنَّه ثابت، قوى؛ لأنه ثمرة تأمل طويل، وتفكير عميق، وربط دقيق بين الظواهر الكونية التى تحيط بالمرء هنا وهناك، وتفرض نفسها عليه فرضًا.

قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾

[الذاريات]

وقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾

[فصلت: ٥٣]

ولهذا بدأ الأنبياء والمرسلون رحلتهم فى عبادة الله، ومعرفته، والدعوة إليه بالتأمل والتفكير فى الكون على نحو ما تقدم عن إبراهيم، وعلى نحو ما أُثر عن نبينا ﷺ من التعبد فى غار حراء قبل البعثة بالتأمل فى عجائب الملك والملكوت، حتى جاءه الوحى هناك.

تقول عائشة رضي الله عنها: «أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحى: الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء، فَيتحنَّثُ فيه - وهو التعبُّد - الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ثم يرجع إلى خديجة...» الحديث [1].

* * *

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب بدء الوحى: باب كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله ١/ ٣.